الآنا والآخر، انفتاح وانغلاق، نموذجان: "علي الحماميّ" و"مالك بن نبي".

أ.د مخلوف عامر
جامعة مولاي الطّاهر، سعيدة/ الجزائر

توطئة:

الأنا والآخر، مقولة شاعت لدى الفلاسفة منذ اليونان مرورا بالفلسفة العربية الإسلامية ووصولا إلى الفكر المعاصر. ومازالت إلى الآن ظاهرة تستحق التأمُّل والدرس. ولو أن الرؤية الغالبة استمرت تحصر صورة الآخر في الأجنبي المستعمِر أو في الغرب المتفوِّق الذي يظهر في المحصِّلة على أنه الاستعمار القديم في ثوب جديد. فهي صورة تحمل نقوشا من خلفية تاريخية لا وجْه فيها للجمال بقدر ما تثير الكراهية والنفور وتدعو إلى الحذر من الآخر/الغريب.

فإذا ما نظرنا إلى هذه الإشكالية من زاوية منطقية تجريدية خالصة، فالأنا لا يمكن أن يوجد إلا بوجود الآخر، لا يمكن الحديث عن الحاضر إلا بتصوُّر ما للغائب وبالعكس. وكما يرى "**سارت**" ((**لكي أتوصل إلى حقيقة كيفما كانت حول ذاتي. لا بد لي أن أمُرَّ عبر الآخر**)). إذ أن كل أنا هو آخر بالنسبة للآخر وكل آخر هو أنا بالنسبة لذاته. الكائن أسبق في الوجود بالضرورة المنطقية ممَّن يفكر فيه، وبالتالي فإن وجود المفكَّر فيه أسبق في الوجود من المفكِّر بخلاف "**ديكارت**" الذي يجعل وعي الذات الفردية ضرورة وجودية أسبق لإدراك الغير.

فأما "**هيجل**" فيرى إلى القضية من زاوية الصراع الجدلي الدائم إذ إن كلا الطرفيْن- الأنا والآخر- يريد أن يثبت ذاته بأن يفتكَّ الاعتراف بوجوده من الآخر مدفوعا بغريزة حب البقاء، كما لا ينتهي الصراع بزوال أحدهما وإلا لما كان

لانتزاع الاعتراف من الغير أي معنى. لذلك فإن الصراع ينتهي بتفضيل أحد الطرفيْن حين يستسلم الآخر فتنشأ بينهما علاقة ما، كما هي بيْن السيد والعبد مثلا.

و"**يشير ميرلو بونتي**"**Maurice Merleau-Ponty**" إلى أن العلاقة هي علاقة تواصل بامتياز وليس الأنا هو الذات الفردية التي تتقوقع على نفسها وتنظر إلى الآخر وكأنها عالِمٌ يدرس حشرة ما. إن التواصل عبر التعاطف الإنساني وليس الفكر المجرد هو ما يحقق التعارف والتحاور وسيبقي الأنا أو الآخر متعاليا عاطلا ومُشيَّأً ما لم يُقْدم على هذه العلاقة التواصلية.

فمن الواضح- إذن- أن القضية ليست في بداهة هذه العلاقة التلازمية بقدر ما تكمن في طبيعة هذه العلاقة. فإذا كانت علاقة **الأنا** بالغير علاقة حرب أو صراع حسب **هيجل** أو علاقة حياد ولا مبالاة حسب **سارتر**، أو علاقة تواصل وتعاطف وجداني، فالثابت أن الوجود البشري سواء بمعنى الذات الفردية أو الـــ"**نحن**" وجود ناقص يحتاج إلى غيره ليكمله، ليُنمِّيه ويُغْنيه. من هنا حوار الحضارات عوض صراعها.

فالأنا يتشكَّل بالقياس إلى **الآخر** ولا يصعب أن نعاين في الواقع مواقف كثيرة تتأسس انطلاقا من الصورة التي لديْنا عن الآخر إن في النظرية أو في الممارسة. وهذا الآخر- بدوره- يتلوَّن وفق تمَوْضع **الأنا** بوصفه ذاتاً فردية في البدء، ثم إن هذه الذات قد تنتمي إلى أسرة أو جماعة سياسية أو طائفة دينية أو مجموعة أو مجتمع فتجعل من ذلك الانتماء مرتكزا لتصوير **الآخر**. من هنا لا يمكن وصف **الأنا والآخر** بالثبات، مادام يتبادلان المواقع دوما ضمن هذه العلاقة التلازمية ويخضعان للتأثير والتأثُّر الدائميْن. أو كما يرى "**هيراقليطس**" أنّ التّغير قانون الوجود **فالأنا** أو **الآخر** هو ذاته في اللحظة الواحدة وليس هو ذاته، فأنت لا تستحمُّ في النهر الواحد مرتيْن.

قد يتمثل **الآخر للأنا** في واقع حاضر يريد أن ينسحب منه مسافة لتحقيق التمايز، وقد يتمثل له في ماض نموذجي يسعى للتماثل معه. ولا شك يكون للتحولات الجارية في المحيط الضيق والأوْسع ولطبيعة التكوين الذي يتلقّاه المرء أثره الحاسم في تشكيل الصورة التي يرسمها **الأنا** عن **الآخر**. كما لسلوك الآخر– أيضا– أثره في تعديل هذه الصورة أو في تغييرها. ومن المفارقات أن المرء حين يزدري الصورة التي كوَّنها لنفسه عن الآخر، لا يدرك أنها صورته هو وليست بالضرورة صورة الآخر.

هذا ما آثرتُ أن أتعرض له من خلال عمليْن هما: "**إدريس: لـــ:**" **علي الحمامي**"[(2)] و"**لبَّيْك حج الفقراء**" لـــ: "**مالك بن نبي**"[(2)] وقد اخترتهما للأسباب التالية:

1- يمكن أن يُعَدَّ الكاتبان قرينيْن بالنظر إلى أن فارق السن بينهما في الولادة هو ثلاث سنوات فقط.

2- لقد عاصرا المرحلة التاريخية نفسها، وقد انطبعت بظهور المعسكر الاشتراكي ونشوء حركات التحرر ونشوب الحربيْن العالميتيْن والأزمة الاقتصادية وكل ما عرفه العالم في النصف الأول من القرن العشرين. وخاصة أحداث8 **ماي 1945م** في الجزائر وتبلور فكرة الكفاح الوطني المسلَّح.

3- إن العمليْن كليْهما كُتبا في فترة واحدة وهي أربعينيات القرن العشرين. إذ كتبت "**إدريس**" ببغداد **ديسمبر 1941 م جويلية 1942م**، وكتبت "**لبَّيْك**" سنة **1947م**.

4- كُتب العَمَلان باللغة الفرنسية ممّا يستدعي احتمال التقارب أكثر من التباعُد في زاوية النظر لدى المؤلفيْن.

5- فأما التقارب فواضح تفسيره بحكم الظروف المشتركة ولغة الكتابة والانتماء إلى وطن واحد، فأما إذا حصل التباعد فذلك قد يعني أن العقيدة التي يحملها المرء هي ما يحسم توجُّهَه وما اللغة عندئذ إلا وسيلة للتبليغ.

6- إذا كان الكاتب الأول وهو "**علي الحمامي**" قد توفي عام **1949م**، بينما توفي "**مالك بن نبي**" سنة **1973م**، فهل يكفي أنْ عاش هذا الأخير بعده ما يقرب من ربع قرن ليصبح معروفا بقدر ما يبقى الأول مغمورا؟ أم أن الأمر يتعلق بطبيعة الرسالة الفكرية التي يحملها كل منهما ومدى حظها من الترويج ؟

الأنا، مقاومة وانفتاح:

أ- "إدريس: لـــ: "علي الحمامي":

يندرج هذا العمل ضمن ما يُعرف بـــ: "**رواية شمال- إفريقية**" (**Roman nord-Africain**) ولكنها في الحقيقة ليست رواية بالمعنى الخيالي، إذ لا أثر فيها لإبداع جمالي متميز من حيث البنية الروائية كما نعرفها اليوم. فالسرد هو المرتكز الأساسي من البداية إلى النهاية. إنها كتابة تندرج ضمن ذلكم النوع الذي يرصد الأحداث الواقعية ويسعى إلى أن يكون وفيّا في نقلها ويستنجد- في الوقت ذاته- بالتاريخ فيستحضره ردّاً على مزاعم استعمارية تستهدف هذا التاريخ تشويها وطمسا. إنها كتابة تحتج وتفضح لتكشِف عورة المستعمِر على نحو تقريري، كما تستعيد الماضي، فتُلَمْلِمَ شتات هوية ضائعة لتؤكد وجودها وتفرض حضورها.

يتحدث في البداية عن الجذور، فـ"**إدريس**" ينحدر من أصول بربرية عريقة في التاريخ وهو ابن الجبل، هذه المنطقة التي بقيت مُغْلَقة محصَّنة طيلة الزمن رغم حملات الغزو المتتالية بما فيها الحملات الإسلامية. ولذلك يختار لهذا الفصل عنوانا ذا دلالة" **هو: ولادة**"(**Germinaison**) تتلوه بقية العناوين التي لا تخلو من شحنة أدبية دالة أيضا وهي: الملتقى تحت المقام- في ظلال تيزيران- خيط

أريان- المسجد ذو الأضرحة المطلية بالأبيض- التاريخ هذا الدليل- صوت الدم- ما بعد الأفق.

يأبى الكاتب إلا أن يصوّر تضاريس المنطقة وطبيعتها الخلابة، فيرسم باللغة جبالها العالية وسهولها الممتدة ووديانها المنسابة بين الفجاج وفي أعماق الغابات، يصورها تحت أشعة الشمس وفي الغروب وحين يلفها الليل بظلامه الحالك، وكأنه يقدم للمتلقي بطاقة بريدية تبرر بقاء الكاتب مشدودا إلى وطنه كما تغوي الأجنبي بغَزْوِه والاستيلاء عليه.

ثم ينصرف ليحدثنا عن هذا التاريخ العريق. يركز فيه على أبطال المقاومة من "**حنبعل**" إلى "**يوغرطة**" وتحرير **المغرب** على أيدي السعديين بقيادة "**عبد المالك**" مؤسّس دولتهم، وتحطُّم الحملة الصليبية الثامنة على جدران **تونس** في معركة كان لها الفضل في إنقاذ شمال إفريقيا من هذا الغزْو.

عندما يعود الكاتب إلى التذكير بهذا التاريخ القديم، فإنما هو – في الواقع- يَرُدُّ على السياسة الفرنسية التي كانت ترمي إلى أن تجعل **الجزائر** قطعة من **فرنسا**. (**Algérie française**). تماما كما انتشرت الكتابات التاريخية والمسرحية منذ ثلاثينيات القرن الماضي وما بعدها لتؤكد الفكرة ذاتها وهي أن الجزائر كيان تاريخي مستقل وعريق وكان من هذه المؤلفات التاريخية مثلا: **(تاريخ الجزائر في القديم والحديث)** لــ: "**مبارك الميلي**" و**(تاريخ الجزائر العام)** لــ: "**عبد الرحمن الجيلالي**" ومن المسرحيات **(حنبعل) لأحمد توفيق المدني** و**(يوغرطة)** لــ: **عبد الرحمن ماضوي** و**(بئر الكاهنة) لمحمد واضح** و**(بلال بن رباح) لمحمد العيد** و**(الخنساء) لمحمد الصالح رمضان**..الخ، ما يعني أنّه وطن لا يمكن ترويضه ليخضع للإدماج ناهيك عن طمس هويته. وهو كما يشير إلى المحطات التاريخية المشرقة ويمجد الأبطال الذين قاوموا وصمدوا في وجه الدُّخلاء، فإنه لا يفوِّت الفرصة في أن ينتقد بسخرية أولئك الذين باعوا أنفسهم للعدو وانسلخوا من كيانهم

فاندمجوا في الآخر، يقول: ((**كانت هناك فئة من أجداد إدريس ليس لها مكان في قلبه. إنها فئة المرتدِّين الإقصائيين، المندمجين في اللاتين الذين اعتنقوا المسيحية فيما بعد، أولئك الذين تنكروا لبلد آبائهم وقطعوا نهائيا مع قانون الرابطة الدموية. إن سانت أوغستين وجوبا يمثلان نموذجيْن من هذا النوع.**))[3] فالذي كتب "**حاضرة الرب** " كان قد بدأ بنسيان حاضرته.

"Celui qui écrivit la cité de dieu avait commencé par oublier la sienne"

إن الثقافة اللاتينية لم تمس إلا بعض الفئات المعزولة من البربر بينما بقي الشعب في عمومه متمنِّعا عن أي نوع من الاندماج. فالأوراس والجرجرة والورسنيس والأطلس المغربي استمرت جميعها مستعصية عن الاندماج بحيث لا جوبيتير ولا المسيح يستطيع أن يجد له مكانا في إفريقيا.

ها هو "**إدريس**" يدخل الكُتاب في الجبل ليحفظ القرآن، يذرع اللوحة بعيْنيه صعودا ونزولا، يلجلج الآيات القرآنية طيلة النهار حتى إذا ما تمكَّن من الحفظ عرضها على الفقيه ليُرخِّص له بمحوها. وبعدما يمحو اللوحة ويطليها بالصلصال يمسك القلم القصبي بعدما يكون قد وضع أمامه دواة صنع مدادها من الوذح المحروق وغمسه في قليل من الماء الفاتر. إنه الأنا يتشكَّل ويتميز بعيدا عن المدرسة الفرنسية المعاصرة.

يأخذ من والده "**الحاج علال**" إحساسه بالروح الوطنية وهو سلفي عقلاني متنور لا يعرف مسائل الفقه ولا علم الكلام المعتزلي ولا المذهب الحنبلي ولا شيئا عن **ابن تيمية**. فإذا ما قُدر له أن يتحدث في مثل هذه المواضيع فقد يتحدث عن **ابن تومرت** وعقيدة الموحدين دون علم منه بالتفاصيل.

لكن "**الحاج علال**" تعلم كثيرا من أسفاره المتعددة، فهو قد زار مصر وحج إلى الأماكن المقدسة، وهناك التقى بأزهري حَدَّثه طويلا عن التّاريخ العربيّ

الإسلاميّ منذ **إبراهيم الخليل وعدنان وقحطان** وصولا إلى المجتمع العربي قبل الإسلام ثم ظهور الدعوة الإسلامية وما صحبها من خلافات في سقيفة بني ساعدة، ومقتل الخلفاء الراشدين وحرب صفين وتحويل الخلافة إلى تركة يرثها الأمويون.

يزرع في ذهنه هذا الأزهري ضرورة اعتماد القراءة النقدية للتاريخ، حتى إن الأزهري يتفاجأ عندما يُخبره "**الحاج علال**" بأنها حَجَّته الرابعة، فيصرخ في وجهه قائلا: **من طلب إليك هذا، إن حَجَّة واحدة تكفيك إذا كنت تستطيع فعلا، فإذا فَضُل عليك من مالك فهَبْه لخدمة الوطن ومساعدة المحتاجين. لقد تعلم "الحاج علال" هذه المرة شيئا واحدا وبصفة نهائية وهو أن روح المشرق أخذت في التغيُّر ومن الآن فصاعدا كل بلد- وبالعودة إلى القوانين الأبدية التي أملتها الأرض والدم وبالعودة إلى تاريخه- يجب عليه أن ينقذ نفسه بنفسه. إنها الفكرة الوطنية تشق طريقها من تحت الفكرة الدينية))**[4]. **إدريس**، تأثر بالسيد "**بوزيان**" عالم من"**مازونة**" الواقعة في الغرب الجزائري ملِمّ بالتراث والفلسفة والتاريخ وسائر علوم العربية ومتفتح على الثقافات الأخرى ما جعله يمتلك رؤية نقدية فكان بالنسبة له بمثابة "**خيط أريان**"[5] **fille d'Ariane** اهتدى بفضله إلى الخروج من متاهة المعلومات المشوَّشة إلى الاستنارة والقدرة على الغربلة والتمييز.

تعلم الاسبانية والفرنسية وحرص على إصلاح الدين معجبا **بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وطه حسين.** لم يعد يقتنع بحفظ الألفية والآجرومية وشرح ابن عقيل، بل صار يفكر فيما يمكنه أن يُصلح التعليم لَعَلَّنا نلتحق بالركب الحضاري لأن روح بغداد وقرطبة قد ماتت مع ابن خلدون.

هذا هو المسار الذي يسلكه بطل الرواية، مسار يبدو فيه منشطرا بين قساوة الحاضر والحنين إلى ماض مجيد يستنير به في طريق المقاومة إلى أن يُصاب في مواجهة مع قوات العدو ويستشهد متأثرا بجراحه.

فأمّا الآخر فهو هذا الأجنبي الذي يغزوك ويريد أن يستولي على ما هو لك، سواء أكان رومانيا أم اسبانيا أم برتغاليا أم اسبانيا أم فرنسيا.

ويمكن تلخيص السياسة الفرنسية بوصفها صورة تنسحب على كل آخر أجنبي فيما يلي:

- الغزو باستعمال كل وسائل القوة الممكنة.
- إنشاء منظومة من القانون الاستثنائية خاصة بالأهالي لإبقائهم في حالة دائمة من التخلف.
- منح البلد للشركات الرأسمالية لتستنزفه عوض أن تفكرفي تصنيعه.
- تجهيل الشعب والحيلولة دون تمكينه من فرصة للتعليم.
- مراقبة كل ما ينشر باللغة العربية

الآخر هو أيضا "**لافيجري**" و"**شارل دو فوكو**" كلاهما لبس عباءة الدين لتحقيق أهداف لا علاقة لها بالدين في الأصل. إنهما من أولئك الذين يتحدثون عن أشياء في السماء من أجل أن يحققوها على نحو أفضل في الأرض.

ويرى أننا- نحن المغاربة- لم نستطع أن نفهم الفرنسيين إذ لامارتين لم يُخفِ مطالبته بضرورة الاستمرار في غزو الجزائر وكذلك **فكتور هيجو**. هكذا هي فرنسا تعظِّم "**زولا**" وتطارد منافسيه في إفريقيا، تعتمد العقد الاجتماعي في أشغال البرلمان بينما تمارس العبودية على أهالي أفريقيا، هي فرنسا التي يُقرأ فيها "**جرمينال**" **ويُوزَع**" بينما هنا تمنعنا حق التفكير والكتابة.

ولكن الآخر بالنسبة إليه أيضا هو الأب "**توركواتو**" **Torcuato** الذي شبَّهَهُ الضابط العسكري بسقراط الذي كان يلقي الدروس على تلاميذه في أروقة الأكاديمية. فقد جاء هذا الأب لينشر المسيحية لكنه كان يقدم للطلبة العرب المسلمين عن أمجاد أجدادهم الوطنية ما لم يكونوا يجدونه لا في "**نفح الطيب**" ولا في "**الإحاطة**".

يتأكد من خلال عشرات الأسماء والمؤلفات الواردة في الكتاب أن المؤلف يتمتع بثقافة موسوعية جمع فيها بين الثقافة العربية الإسلاميّة والغربيّة.

يُظهر نقمة واضحة على الممارسات الاستعمارية، فهو حاقد على مظاهر الاستغلال وانتزاع الأراضي من أصحابها، واتباع سياسة التجهيل. وينتقد في الوقت ذاته الطريقة التعليمية المتخلفة في الكتاتيب والزوايا، لأنها طريقة تُكرِّس الانغلاق وتشجع بوعي أو بدونه السلطة الاستعمارية على التمادي في تنفيذ مشروعها، وكأنه يستوحي في ذلك **(أيام)** "**طه حسين**" الذي يرى فيه النموذج الأنسب للتمازج الثقافي والحضاريّ.

يتضح جليا أنه كان يكافح من أجل الحرية ويفكر فيما يخلِّفه للأجيال القادمة ويعبر عن هذه القناعة الراسخة على لسان إحدى الشّخصيّات فيقول: ((**يجب أن نمر بهذا الطريق المزروع بالمشاق كيْ يحيا بلدُنا وحتى يجد الذين يأتون بعدنا في يوم من الأيام أرضا حرَّة. نعم يجب أن نمر من هنا وإننا لا نسلِّم حتى ولو انهزمنا**))[6].

ليست هذه المواقف غريبة من رجل جال في عدة بلدان يحمل قضية عاش من أجلها وجعل لأفكاره امتدادا في الممارسة فشارك في ثورة الريف إلى جانب "**عبد الكريم الخطابي**" الذي يشهد له في تقديمه للرواية فيقول: ((**وكتاب الأخ المجاهد الأستاذ علي الحمامي المغربي يكشف- ولو أنه محرر في شكل رواية- على الكثير من أباطيل سياسة فرنسا الطائشة في المغرب. وعسى أن يُترجَم هذا الكتاب المحرر باللغة الفرنسية إلى اللغة العربية حتى يدرك أبناء عمومتنا في الشرق العربي ما هو جارٍ هناك. كما أن هذا الكتاب لا يُخفي بعض الأخطاء التي كانت سائدة في المغرب قبل الاحتلال والتي كانت من البواعث الأكيدة على سقوطه في قبضة الاستعمار**))[7].

كان "**علي الحمامي**" من أولئك الذين يصدق عليهم بحق قول "**فرانس فانون**": ((**الإنسان المُستعمَر الذي يكتب لشعبه عندما يستعمل الماضي ينبغي أن يقوم بذلك بنية أن يفتح أفقا نحو المستقبل، ليدعو إلى العمل، ليؤسِّس الأمل، ولكن من أجل ضمان الأمل، ولإعطائه القوة، يجب أن يشارك في الفعل، أن يلتزم جسدا وروحا بالكفاح الوطني**))[8].

وأهمُّ ما يلفت النظر لديْه أنه لا يتردَّد في الافتخار بتاريخه وبماضي أجداده فيحرص على إبراز المحطات المضيئة في هذا التاريخ ليجعل منها مرتكزا لتعميق الثقة بالنفس وتوكيد حضور الأنا. ولكنه لا يعادي الآخر بصفة مطلقة، بل يقيم الفرز داخل هذا الآخر كما يقيمه داخل الأنا الجمعي، ما يشجع على التمسك بحبل الأصالة من غير التفريط في منجزات العالم المتطور.

الأنا، حنين وانغلاق:

فأمّا بالنسبة إلى "**مالك بن نبي**" فإن استرجاع الهوية المفقودة- في نظره- فلا يتمُّ إلا بالرجوع إلى الأصل وهو الإسلام الذي يمثل له في القصة بالطريق إلى الأماكن المقدسة حيث النبع الإلهي الصافي، إنه الطريق الذي يُخرج "**إبراهيم**" من سواد الفحم ليدخله في بياض الإحرام، ينقله من دائرة الرذيلة إلى عالم الفضيلة، من النجاسة إلى الطهارة. لذلك لمَّا حج قرَّر أن يبقى هناك يبيع القهوة ويستعمل البنزين والوقود بعدما ترك الفحم والخمر في بونة(**مدينة عنابة**).

تنحصر الإنِّية لديْه، في الإسلام فأمّا الآخر فهو الكافر الذي يحتسي الخمر ويأكل الخنزير ويجادل في وجود الخالق، والمسلمون وإن اختلفت مذاهبهم إلا أنهم في موكب الحج لحمة واحدة لا فرق بيْنهم سرعان ما يتعارفون ويتضامنون وينسى كل منهم المذهب الذي ينتمي إليه يقول: ((**عادة تتشكَّل الجماعات حسب انتمائهم إلى مختلف الفرق الدينية(...) لكن، في السنوات الأخيرة لم تعد هذه التجمعات**

تقام حسب الانتماءات الدينية وأصبح التجمع للتعايش على المركب لا غير)). لبيك، ص: 82.

كما إنه لا يتردَّد في تقرير الفكرة المركزية والتي سنجدها مبثوثة في سائر كتبه إذْ يقول: **((إن مصاعب الحياة والصراعات والبؤس ليست وليدة المصادفة ولا من صنع الله، كل هذا هو نتاج المدنية المتحضرة التي خالفت القوانين الأساسية للسعادة. أما اليوم فهي تحاول تعويضها بقوانين مصطنعة لكن السعادة ليس لها بديل...والحقيقة أيضا... العلوم والسياسة لا يستطيعان أبدا إعادة بناء الأرواح البشرية المحطمة))** لبيك، ص: **107.**

فالمَدَنية المتحضِّرة هي من إنتاج الآخر، ولأنها مَدَنية مادية خالية من الروح فإنها لم تنتج إلا الصراعات والبؤس. لأنها خالفت القوانين الأساسية للسعادة أي القوانين الإلهية واعتمدت قوانين وضْعية، وما القوانين الإلهية سوى الشريعة الإسلامية التي إليها يحنُّ الكاتب ويرى أنْ لا خلاص للإنسانية إلا بالرجوع إليها.

فالآخر- منظورا إليه من هذه الزاوية- هو الصراع والبؤس والحرمان الروحي فهو مرفوض. وهي زاوية يغلب عليها منطق التعميم المثالي سواء في استحضاره الماضي الإسلامي وكأنه كتلة واحدة منسجمة لا شية فيها أو في تقسيمه العالم إلى خطَّيْ **واشنطن /موسكو، طنجة/جاكرتا.**

لكن الطريق الأدبي الذي اختاره يبدو غير مكتمل، يفتقر إلى المقومات الأدبية الجمالية. إذْ يبدأ الخطاب التقريري المباشر منذ العنوان، ويستطرد في تفاصيل لا يحتملها العمل الأدبي، حيث تطغى نزعة الوعظ والإرشاد ويبني الحدث على المصادفة، خاصة وأنه يبدو حريصا على أن تكون الشخصيات حقيقية فهو يصرح في رسالته إلى الناشر قائلا: **((ولم يكن لديَّ متسع من الوقت لأتعرَّف على الأشخاص بصورة كافية، خاصة الشخصيتيْن اللتيْن قامت حولهما القصة وهما الفحام والطفل اللذان عاشا في مدينة عنابة. أما الجانب الخيالي الوحيد**

فيتمثل في الصلة التي وضعتها بين الأشخاص في المكان والزمان، حتى مغامرة الحاج التونسي الذي مُنع من الحج فهي حقيقة قد شغلت الصحافة التونسية آنذاك))، لبيك، ص: **24 ، 25.**

ولعل المؤلف نفسه قد استشعر عدم اكتمال الصورة الأدبية لعمله فهو في رسالته على قِصَرها يسميها رواية تارة، وقصة تارة أخرى، بل ويعترف صراحة أنها كتبت على عجل، وبها أخطاء تقنية، فيقول: ((**إنّ الرواية التي أتقدم بها إليكم قصة مرتجلة لحج بطليْ القصة، كتبت القصة في غرفة في فندق بين سفرتيْن متقاربتيْن جدا، فبالإضافة إلى الأخطاء التقنية هناك أخطاء أخرى قد لا يكون مفرٌّ منها، خاصة عندما نكتب في عجالة))**، لبيك، ص:**24.**

وربما جعلته هذه التجربة اليتيمة يقتنع بأن طريقه الأنسب ليس أدبيا وهو الذي- لا شك- اطلع على أعمال روائية باللغة الفرنسية وأدرك قيمتها الإبداعية، فهجر الكتابة الأدبية لينصرف إلى معالجة المسائل الفكرية في كتبه المعروفة.

يتبيَّن من خلال النموذجيْن أن الرجليْن وإن عاشا الظروف نفسها في النصف الأول من القرن الماضي واستعملا لغة واحدة هي الفرنسية إلا أنهما يختلفان جذرياً في رؤيتهما إلى الواقع وإلى المستقبل، ما يؤكد أن اللغة في هذه الحالة ليست سوى وسيلة تعبير وتبليغ بحيث تبقى القناعة الفكرية هي البوصلة الموجِّهة والمتحكِّمة في مسار كل منهما.

إن الجانب الخفي من حياة "**مالك بن نبي**" والذي غالبا ما يُغفل، يعود إلى الفترة التي عاشها في **L'eure-et-loir** بــ: **Luat-clairert** بفرنسا حيث سُجن من قِبل السلطات الفرنسية خمسة عشر شهرا على دفعتيْن بتهمة العَمَالة للنازيين، واشتغل في ألمانيا في صيف **1942** م ثم قرر العودة إلى فرنسا أيْن التقى زوجته وعمل في مصالح إدارة "**فيشي**" **(Vichy)** بــ : **(Dreux)**.

بقي هذا التاريخ يلاحقه فلم يطمئن إليه القادة في الثورة الجزائرية خوفا من أن تكون المخابرات الفرنسية قد ساومته وتسعى إلى أن تدسَّه في صفوف الثوار،[9] فيكون بذلك قد عاش بعيدا عن الثورة أثناء إقامته بفرنسا ولأنه لم يكن محل ثقة فقد استمر بعيدا عنها في فكره أيضا.

ثم إن المكانة التي حازها "**مالك بن نبي**" قد لا تعود إلى أنه عاش أزيد من قرينه قرابة ربع قرن، ولا لأن طروحاته الفكرية ذات عمق فلسفي خارق، بل لأنها صادفت وجود أنظمة حاكمة عقيمة تنكَّرت للمشروع التحرري اجتماعيا وثقافيا، ولم يكن لها أي مشروع تنموي محدد من شأنه أن يحقق العدالة والتقدم.

ترافَقَ ذلك مع ما عرفه الفكر القومي من انتكاسات متتالية وما لاقاه الفكر الاشتراكي بعده من عثرات، ففُتح المجال واسعا أمام الإسلام السياسي ليظهر للجماهير المفَقَّرة بوصفه البديل المنقذ من البؤس والضلال، جماهير يفترسها التخلف وينخرها الجهل فتنقاد إلى خطاب مغاير- ولو هو في جوهره- لا يعدو أن يكون خطابا إنشائيا يزرع الوهْم بالذي يأتي ولا يأتي.

الهوامش:

1- ولد "علي الحمامي" سنة 1902م بتيارت، من أسرة أصولها من "عين الحمام" بمنطقة القبائل كما تشير نسبته. بعدما ذهبت أسرته إلى الحج عادت لتقيم في القاهرة. اشتغل فترة من الزمن على ظهر سفينة تجارية ما سمح له بزيارة عدة بلدان. التقى مع الأمير "عبد المالك" أحد أحفاد الأمير عبد القادر وشارك في ثورة الريف المغربي إلى جانب "عبد الكريم الخطابي". أوْفده "الأمير خالد2" مع آخرين إلى موسكو وتعرف على شخصيات عالمية منها: "هوشي منه" ولما لاحقته السلطات الاستعمارية جال في بعض البلدان العربية ثم استقر في العراق حيث كان يُدرِّس التاريخ والجغرافيا، ومنذ 1946م انتقل إلى القاهرة وانضم إلى مكتب المغربي العربي للمقاومة إلى أن توفي في حادث طائرة في باكستان سنة1949، عندما كان عائدا من كراتشي حيث شارك في المؤتمر الإسلامي الأول.

2- ولد سنة 1905 م بمدينة قسنطينة شرق الجزائر، تابع دراسته القرآنية. والابتدائية بالمدرسة الفرنسية. وتخرج سنة 1925م بعد أربع سنوات، سافر بعدها مع أحد أصدقائه إلى

فرنسا حيث كانت له تجربة فاشلة فعاد مجددا واشتغل بمحكمة أفلو حيث وصلها في مارس 1927م،. وقد استقال من منصبه القضائي فيما بعد سنة 1928 م إثر نزاع مع كاتب فرنسي لدى المحكمة المدنية. سافر سنة 1930م إلى فرنسا لرحلة علمية. حاول أولا الالتحاق بمعهد الدراسات الشرقية، إلا أنه لم يكن يسمح للجزائريين ه بمزاولة مثل هذه الدراسات. فالتحق بمدرسة (اللاسلكي) للتخرج كمساعد مهندس. انغمس مالك بن نبي في الدراسة وفي الحياة الفكرية، واختار الإقامة في فرنسا وتزوج من فرنسية، سجنته السلطات الفرنسية بتهمة العَمالة للنازية، ثم شرع يؤلف الكتب في قضايا العالم الإسلامي، فأصدر كتابه **الظاهرة القرآنية** في سنة 1946 م ثم **شروط النهضة** في 1948م، الذي طرح فيه مفهوم القابلية للاستعمار و**وجهة العالم الإسلامي**1954م، و**مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**. انتقل إلى القاهرة بعد إعلان الثورة المسلحة في الجزائر سنة 1954م وهناك حظي باحترام كبير، فكتب **فكرة الإفريقية الآسيوية** 1956م. وتوالت أعماله الأخرى. وبعد استقلال الجزائر عاد إلى أرض الوطن، فعين مديراً للتعليم العالي الذي كان محصوراً في جامعة الجزائر المركزية، حتى استقال سنة 1967م متفرغاً للكتابة، بادئاً هذه المرحلة بكتابة مذكراته، بعنوان عام **مذكرات شاهد القرن.** يعد من مؤسسي الإسلام السياسي في الجزائر. توفي يوم 31 أكتوبر1973م . لكن الجانب الخفي من حياة "مالك بن نبي" والذي غالبا ما يُغفل، يعود إلى الفترة التي عاشها في L'eure-et-loir بـــ: Luat-clairert بفرنسا حيث سُجن من قِبل السلطات الفرنسية خمسة عشر شهرا على دفعتيْن بتهمة العَمَالة للنازيين، واشتغل في ألمانيا في صيف1942م ثم قرر العودة إلى فرنسا أيْن التقى زوجته وعمل في مصالح إدارة "فيشي"(Vichy) بـــ : (Dreux).

3- Ali El Hammami, IDRIS, entreprise nationale du livre, Alger, 1988, p:22.

4- Ali El Hammami, IDRIS, p :144-145

5- أسطورة يونانية تروي أن شابّاً حُبس في متاهة لا يستطيع أن يخرج منها ليرى النور والحرية إلا بواسطة خيط أهدتْه إياه محبوبتُه "أريان".

6- Ali El Hammami, IDRIS, entreprise nationale du.livre, Alger, 1988, p, 388.

7- نفسه، المقدمة.

8- FRANTZ (Fanon): Les damnés de la terre, préface de Jean-Paul Sartre, p : 280.

9- Belaid Abane: Benbella-Kafi-Bennabi contre Abane. Les raisons occultes de la haine, Koukou éditions, Mars 2012.